# الفصل الرابع

## التراكيب والتعبيرات القرآنيّة

قبل أكثر من خمسين عاماً قرأت كتاباً جميلاً في الحبّ العفيف لشيخ العربيّة مصطفى صادق الرافعيّ اسمه "أوراق الورد: رسائله ورسائلها"، ثمّ أُنسِيتُ معظم ما قرأته فيه، ولكنّني لم أنسَ أبداً، ولن أنسى، تلك المقدّمة "المفاجأة" التي ابتدأ بها إحدى رسائله الورديّة، حين قلبَ عبارتَنا الافتتاحيّة التقليديّة لرسائلنا وخُطبنا (أمّا بعد..) لتصبح عنده:

(أمّا قبل..)!

إنّها مجرّد عبارةٍ جديدةٍ متميّزةٍ واحدة، افتُتحت بها رسالةٌ طويلةٌ واحدة، بين رسائل عديدةٍ تضمّنها كتابٌ واحدٌ من كتب الشيخ العديدة، فاستطاعت أن تخترق حدودَ الزمان وعواملَ النسيان بما حقّقته من عنصر المفاجأة والخروج على العُرف اللغويّ المتعاهَد.

فكيف بك لو غيّر الرافعيّ كلّ لغة هذه الرسالة، بل لغة كلّ الرّسائل التي ضمّها كتابُه، وأعاد بناء ألفاظها وتراكيبها وعباراتها فجعلها من نوع (أمّا قبل)؟ ماذا سيترك ذلك من أثرٍ في نفس القارئ الذي يقرأها أوّل مرّة؟

من المؤكّد، كما ستتوصّل إليه هذه الدراسة، أنّ عدد (أمّا قبل) في كلّ سورةٍ من سور القرآن -أقصد ما يوازي هذه العبارة من مواقع لغويّةٍ تجديديّة- يفوق عددَ كلمات السورة.

وهذه الكثافة غير العاديّة للَّبِنات التجديديّة ترسم لنا خطّاً بيانيّاً لحجم الظاهرة التجديديّة في القرآن الكريم، ومن ثمّ لدرجة الإعجاز التي فاجأ بها

العربَ الأوائل، ولطبيعة الصدمة التي أحدثها فيهم عند اللحظة الأولى للتلقّي، بحيث أدّت بكثيرٍ منهم إلى التسليم والارتماء الفوريّ بأحضان الدين الجديد حال سماعهم للآيات الأولى من الوحي.

وما أحوجنا اليوم إلى دراسةِ ما دخل في العربيّة، وما لم يدخل بعد -وربّما لن يدخل أبداً-، من تعبيراتٍ وتراكيب لغويّةٍ قرآنيّةٍ لم تعرفها قبل الإسلام، فنقوم برصدها وجمعها وتصنيفها تصنيفاً معنويّاً، إذن لحصلنا على معجمٍ فريدٍ يسدّ ثغرةً كبيرةً، لم يَقم لها أحدٌ بعدُ، في معرفة التطوّر التاريخيّ للغتنا العربيّة، وإمكاناتها المستقبليّة.

## صدمة الجِدّة في التعبير والتركيب:

إنّ تفرّد التركيب والتعبير القرآنيّين، وجدّة الألفاظ القرآنيّة، وكذلك العلاقات المختلفة التي أوجدها القرآن بين هذه الألفاظ، كثيراً ما كانت تضع العرب مع بداية تنزّل الوحي أمام تساؤلاتٍ عديدةٍ قبل أن يستقرّ قرارهم على معناها أو المراد منها، من غير أن يعني هذا الاستقرار، في كثيرٍ من الأحيان، الخروج بمعنىً نهائيٍّ لها غير قابلٍ للمناورة والحركة، ضمن المعنى الأساسيّ العام، بحيث يظلّ التعبير منفتحاً للأحداث والتطوّرات والظروف المختلفة التي ستمرّ بالمسلمين من بعد، وهذا ما سنفصّل القول فيه عند دراستنا للّغة المنفتحة للقرآن الكريم.

وقد حدث أن وقف الرسول ﷺ نفسه متسائلاً حائراً أمام بعض الآيات لدى تنزُّلها، كما في حديث الشَّعبيّ[1] وفيه:

> لمّا أنزل الله (خذِ العفوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأعرِضْ عن الجاهلين) قال رسول الله ﷺ: ما هذا يا جبريل؟ قال: لا أدري حتّى أسألَ العالِم. فذهب ثمّ رجع فقال: إنّ اللهَ أمرَكَ أن تعفوَ عمّن ظلمك، وتعطيَ من حَرَمَك، وتَصِلَ مَن قَطعَك.

(1) السيوطي، **الدر المنثور**، مرجع سابق، ج3، ص628.

وهكذا فوجئ العرب بفيضانٍ من التراكيب والتعبيرات الجديدة التي تكاد تكون مبثوثةً في كلّ آية، واستطاع بعضها أن يأخذ طريقه بسهولةٍ إلى ألسنة الناس، عن وعيٍ أو عن غير وعي، بحيث اتّخذت العربيّة بعد الإسلام حُلّةً مغايرةً تماماً لما كانت عليه قبل الإسلام. ولا نغالي لو قلنا إنّ كلّ تعبيرٍ أو تركيبٍ في القرآن يكاد يكون جديداً على لغة العرب، وربّما ما يزال يحتفظ بجدّته إلى يومنا هذا، فلم يدخل أكثر هذه التعابير والتراكيب في لغتنا، القديمة منها والحديثة، أبداً.

## حدود التركيب والتعبير:

بدهيٌّ، حين ندرس التراكيب والتعبيرات والسبائك والعلاقات اللغويّة في القرآن الكريم، أن نواجه أحياناً بعض الصعوبات في رسم حدودٍ واضحةٍ بين هذه العناصر، ولكنّنا سنحاول ألّا نتجاوز في هذا الفصل المِنطقة التي يتقاسمها التعبير والتركيب، فلا نتراجع مثلاً إلى منطقة اللفظ المفرد المجرّد لأنّ هذه المنطقة مختصّةٌ بالألفاظ والمصطلحات وحدها، ولا نتقدّم إلى منطقة الألفاظ الأربعة فما فوق لأنّنا سنكون معرَّضين بذلك لأن نرتع في تخوم السبيكة، وهي الوحدة اللغويّة الكبرى التي يمكن أن تحتوي أو يدخل تحتها التركيب والتعبير، ولكنها لا تدخل تحتهما أو يحتويانها.

وعلى هذا فلن نرصد في هذا الباب إلّا الصيَغ التي تتألّف على الأغلب من لفظين أو ثلاثة ألفاظٍ، وما يقوم من هذه الصيغ على علاقةٍ لغويّةٍ أو نحويّةٍ أو بيانيّةٍ جديدةٍ لم تعرفها اللغة العربيّة قبل القرآن الكريم.

ولكنْ كثيراً ما تتداخل الحدود بين التركيب والتعبير بحيث نواجه صعوبةً في التفريق بينهما، ولهذا اصطلحنا في هذا البحث على أن يكون (التركيب) هو ما يعتمد أساساً على العلاقات بين الأدوات والحروف أكثر منه على العلاقات بين الأسماء والأفعال، وهو لا يقدم لنا على الأغلب معنىً كاملاً، على حين يقوم بناء (التعبير) على الأسماء أو الأفعال أكثر منه على الأدوات أو الحروف، وغالباً ما يقوم وحده بالمعنى كاملاً.

**التركيب القرآنيّ:**

لقد حمل القرآن الكريم إلى العرب دفعةً واحدة، وخلال فترة السنوات القليلة التي استغرقها تنزّلُه، آلافاً من التراكيب والتعبيرات الجديدة التي امتلأت بها سوَرُه القصيرة والطويلة على حدٍّ سواء، التي دخل كثيرٌ منها في معاجم لغتهم الأدبيّة واليوميّة، وإنّ ظلّ معظمها مقتصراً على القرآن وحده فلم يسمح تفرّدُه وتميّزُه الشديدان بالتسرّب إلى تلك المعاجم.

قد نقرأ آيات الله تعالى يوميّاً، وقد تمرّ بنا عشراتٌ من هذه التراكيب في كلّ قراءة، ثمّ لا نتوقّف عندها أبداً أو نرى فيها ما هو غير عاديٍّ أو غير مفهوم، ذلك لأنّنا أَلِفناها في قراءتنا القرآنيّة واعتدنا ألّا نتوقّع إلّا مثلها. ولكن لو توقّفنا عندها مَليّاً، وفرّغنا ذواكرنا من أُلفتها للغة القرآن الكريم، وعُدنا بها إلى لغتنا العاديّة، الأدبيّة أو اليوميّة، حتّى كأنّنا لم نعرف لغةً غيرها، عندها سنجد أنفسنا وجهاً لوجهٍ أمام هذه الأسئلة الخطيرة: هل هذه هي لغة حديثي؟ وهل هي لغة كتابتي؟ وهل هي لغة كتابة أو حديث أيٍّ من الآخرين حولي؟

اقرأوا معي التراكيب التالية، ومعظمها ممّا يتردّد بكثرةٍ في القرآن، وسوف تتبيّنون باستعراضٍ سريعٍ لها تميّزها الواضح عن تراكيبنا البشريّة، وقد وضعتها بإزائها:

- ﴿مَن ذا الذي﴾: مَن الذي
- ﴿هل عسَيتُم﴾: هل يُنتظَر منكم
- ﴿فإذْ لم يَأتُوا﴾: فما داموا عاجزين عن أن يأتوا
- ﴿بَعْدَ إذْ﴾: بعد أن
- ﴿وكذلكَ جَعلْنا﴾: وهكذا جعلنا
- ﴿وإنّ كُلّاً لمّا﴾: وكلٌّ واحدٍ منهم
- ﴿أوَلَمْ تكونوا أقسَمْتُمْ﴾: ألم تُقْسِموا
- ﴿إنْ كادَ لَيُضِلُّنا﴾: كاد أن يُضِلّنا
- ﴿أفَأنتَ تكون﴾: فكيف تكون

- ﴿أَوَلو جئتُكَ﴾: حتّى إن جئتُك
- ﴿فلمّا أنْ جاء﴾: فلمّا جاء
- ﴿إنّا لَنحن الغالبون﴾: إنّنا سنغلبهم
- ﴿فيما ههنا آمنين﴾: آمنين هنا
- ﴿قليلاً ما﴾: ما أقلّ
- ﴿إنّ هذا لَهو﴾: إنّه حقّاً
- ﴿أإنّكَ لأنتَ﴾: لا شكّ أنّك
- ﴿أإنّا لَمُخْرَجون﴾: هل سنُخرَج
- ﴿وَيْكأنّه﴾: عجباً لهذا
- ﴿أثُمّ إذا ما وقع﴾: فإذا وقع بعد ذلك
- ﴿ثمّ أنتمْ هؤلاء﴾: وها أنتم الآن
- ﴿ها أنتم أُولاءِ﴾: انظُروا كيف
- ﴿ومِنْ قَبْلُ ما فَرّطْتُم﴾: وقد فرّطتم قبل ذلك
- ﴿وما كان لكمْ أنْ﴾: لا يجوز لكم
- ﴿ما يكونُ ليْ أنْ﴾: لا يجوز لي
- ﴿وكأيِّنْ مِنْ نبيٍّ﴾: وكم من نبيّ
- ﴿إنّما ذلكُمُ الشيطان﴾: إنّه الشيطان
- ﴿أوَلَمّا أصابَتْكُم﴾: فإذا أصابتكم
- ﴿لم يَكنِ اللهُ لِيَغفِرَ﴾: لن يغفر الله
- ﴿ولو أنّهمْ إذْ ظَلَموا﴾: ولو أنّهم حين ظلموا
- ﴿فلا وربِّكَ لا يُؤمنون﴾: أُقسِمُ إنّهم لن يؤمنوا
- ﴿إلّا تَنْفِروا﴾: إنْ لم تَنفروا
- ﴿هل لكَ إلى أنْ﴾: أدعوكَ إلى أنْ

وبدهيٌّ أن يقلّ عدد التراكيب القرآنيّة الجديدة، شأنها شأن التراكيب

الأخرى غير الجديدة، عن عدد التعبيرات. إنّ التراكيب، كما أوضحنا، مبنيّةٌ على العلاقات بين الأدوات، وهذه الأدوات في العربيّة، وفي غير العربيّة أيضاً، محدودة العدد، مع التجديد القرآنيّ وتوسّعه وتنوّعه المذهل في استخدامها، أمّا التعابير فتقوم على الأسماء أو الأفعال، وهذه أكثر من أن تُحصى.

ولتكون الصورة أمامنا أكثر وضوحاً سنتوقّف عند عشرين تركيباً قرآنيّاً جديداً اخترناها عشوائيّاً، وسنكون فيها أكثر حرصاً على وضعها ضمن سياقاتها في الآيات لتعيننا بوضوح على تقدير حجم المفاجأة التي أحدثتها في نفوس العرب ساعة نزل الوحي عليهم، وسيساعدنا عرض معانيها بجانبها على تصوّر الفرق بين التركيب القرآنيّ والتركيب البشريّ. وسيكون من المفيد جدّاً أن نطرح على أنفسنا بعد قراءة كلّ تركيبٍ الأسئلةَ الأربعة التالية:

1 - هل حدث، أو يمكن أن يحدث، أن أعبّر أنا عن هذا المعنى بهذه الطريقة؟

2 - وهل وجدت، أو يمكن أن أجد، مثل هذا التركيب عند الأدباء والشعراء العرب؟

3 - ولو حدث أن استخدم بعضُ هؤلاء واحداً منها فهل ستَفوت علينا قرآنيّتُه، أم سيبدو لنا وكأنّه يصيح بصوتٍ مرتفع: إنّني تركيبٌ قرآنيّ؟

4 - ومهما اجتهدتُ لإيجاد خياراتٍ أخرى، وطرقٍ للتعبير عن هذا المعنى بأسلوبي الخاصّ، فهل سيوافق تركيبي، ولو بالمصادفة، التركيبَ القرآنيّ؟

ربّما ترون في طرح أربعة أسئلة أمام كلّ نموذجٍ من النماذج العشرين أمراً مرهِقاً وطويلاً، ولكنّني متأكّدٌ من أنّكم ستستمتعون بالنتائج المفاجِئة التي ستحصلون عليها بعد الإجابة عن كلّ سؤال.

لنبدإ المحاولة إذن مع التراكيب القرآنيّة التالية، وقد ميّزت التركيب المقصود عن تتمّة الآية بالحرف الداكن:

1 - ﴿**لو أنّ لنا** كرّةً﴾ (أي لو أُتيحَت لنا)

2 - ﴿**ولهمْ فيها** ما تشتهي أنفسُهم﴾ (أي سينالون فيها)

3 - ﴿**همْ فيها** خالدون﴾ (أي سيكونون فيها)

4 - ﴿**وإذْ قلنا** للملائكة﴾ (أي ذكّرهم أو نبّئهم بما قلنا)

5 - ﴿**ذلكَ بأنّهم** كانوا يكفُرون بآيات الله﴾ (أي فعلنا ذلك بهم لأنّهم)

6 - ﴿لا فارضٌ ولا بِكْرٌ عَوانٌ **بينَ ذلك**﴾ (أي هي متوسّطة بين العمرين)

7 - ﴿**إنّه كان** وعْدُه مَأْتِيّاً﴾ (أي إنّه دائماً)

8 - ﴿**حتّى إذا** بلغَتِ التراقيَ﴾ (أي فإذا جاء الوقت المقرّر)

9 - ﴿**إلاّ أنْ** تأتيَهم سُنّةُ الأوّلين﴾ (أي إلّا بعدَ أنْ)

10 - ﴿**لَمَا** آتَيْتُكُمْ.. **لتُؤمِنُنّ**﴾ (أي إذا آتيتكم - أعطيتكم - ستؤمنون)

11 - ﴿**ولو ترى إذْ** يَتوَفّى﴾ (أي فكيف لو رأيتَهم حين)

12 - ﴿**ألا ساءَ ما** يَزِرون﴾ (أي ما أسوأ ما)

13 - ﴿**فلولا إذْ** جاءهمْ بأسُنا﴾ (أي فهلّا فعلوا ذلك عندما)

14 - ﴿**ثُمّ إذا أنتم** بشَرٌ تنتشرون﴾ (أي ثمّ تتحوّلون بعد ذلك)

15 - ﴿**إذَا لهمْ** مَكْرٌ في آياتِنا﴾ (أي فكانت النتيجة أن وقع منهم)

16 - ﴿**هل لكَ إلى أنْ** تَزَكّى﴾ (أي إنّني أدعوكَ إلى أن)

17 - ﴿**فيمَ أنتَ** مِنْ ذِكراها﴾ (أي أين أنت من العلم بهذا الأمر)

18 - ﴿**واجعلْ لنا** مِن **لدُنْكَ** سلطاناً﴾ (أي وامنحنا من عندك)

19 - ﴿**أوَلو كان** الشيطانُ﴾ (أي هل كانوا سيفعلون هذا لو أنّ)

20 - ﴿**أئنّا لَفي** خَلْقٍ جديدٍ﴾ (أي هل سنعود بعدها)

هه؟ هل استمتعتم بهذه المغامرة اللغويّة؟ وهل تأكّدتم أنّ معظم هذه التراكيب ظلّ قاصراً على الاستعمال القرآنيّ حتّى اليوم، وأنْ لا مجال للمقاربة أو المشابهة بينها وبين تراكيبنا البشريّة، مهما تنوّعت أساليبنا، شأنها في هذا شأن التعبيرات القرآنيّة أيضاً؟

**التعبير القرآنيّ:**

يتكوّن التعبير من نشوء علاقةٍ بين لفظين أو أكثر من أسماءٍ أو أفعال. وتنعقد هذه العلاقة مباشرة بين اللفظين، أو مستعينةً أحياناً بالأدوات والحروف. وبدهيٌّ بهذا، كما سبق أن ذكرنا، أن تزداد كثافة استعمالها في القرآن على نسبة استعمال التراكيب بوضوح. ويتراوح عدد أجزاء التعبير على الأغلب بين لفظين وثلاثة ألفاظ، ونادراً ما يكون أربعة، وقد يتخلّل هذه الألفاظ أداةٌ أو أكثر. ولا يمكن أن يقتصر التعبير على لفظٍ واحد، إلّا أن يكون هذا اللفظ مركّباً من أكثر من جزءٍ (حين يتّصل بالضمائر أو الأدوات).

والتعبيرات الجديدة كثيرةٌ جدّاً في القرآن الكريم تكاد لا تخلو منها آية، ولنا أن نتبيّن كثافتها من استعراضٍ سريعٍ لهذه النماذج التي اختيرت عشوائيّاً وعلى عجل، ومن صفحاتٍ محدودة من القرآن:

بادِيَ الرأي - عُمِّيَتْ عليكم - فلا تبتئس - وكان في مَعْزِلٍ - اعتَراكَ بسوءٍ - أَوْجَسَ منهم خَيْفَةً - هذا بيانٌ للناس - مِن فَورِهم هذا - ولا تَلْوُون على أَحدٍ - ضاقَ بهم ذَرْعاً - يومٌ عَصيب - اتّخذتُموهُ وراءَكُم ظِهْرِيّاً - اِعمَلوا على مَكانتِكم - الآن حَصحَص الحقُّ - إلّا بشِقِّ الأنفُس - فأَلْقَوُا السَلَمَ - المَثَلُ الأعلى - شَرَحَ بالكُفْرِ صَدْراً - بالتي هي أحسن - تَوَلّى كِبْرَه - ليس عليكم جُناحٌ - دَعَوا ثُبوراً - هَباءً مَنثوراً - تحيّةً وسَلاماً - صَديقٌ حَميم - ما ينبغي لهم - وقع القَولُ عليهِم - بَلَغَ أَشُدَّه - خائفاً يترقّب - خَيرٌ وأبْقَى - قد أُوتِيْتَ سُؤلَكَ - يَرْجِعُ بعضُهم إلى بعضٍ القولَ - جَزاءُ الضِّعْف - مَثْنَى وفُرادَى - مَثْنَى وثُلاثَ ورُباعَ - يُبْدِئُ ويُعيدُ - أَنَّى لهمُ التناوُشُ - عَذْبٌ فُراتٌ - مِلْحٌ أُجاجٌ - ما يَملِكون مِن قِطْمير - يوم القيامة - ولا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خبير - سِرّاً وعَلانِيَةً - دارُ المُقامَة - ذات الصدور - طَمَسْنا على أعْيُنِهم - قاصراتُ الطَّرْف - ولاتَ حِيْنَ مَناصٍ - وعَزّني في الخِطاب - ورجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ - آسَفُونا - فتَوَلَّى برُكْنِه - إنّك بأعيُنِنا - سِدْرَةُ المُنتَهَى - يَحْلِفون على الكَذِبِ - ناشئة الليل - أشدُّ وَطْأً - أقْوَمُ قِيلاً - سَبْحاً طويلاً . .

وللمساعدة على استيعاب طبيعة التعبير القرآنيّ وتميّزه عن التعبير البشريّ، لنقفْ وقفةً أخرى مع خمسةٍ وعشرين نموذجاً ظلّ معظمها حتى الآن

خاصّاً بالقرآن الكريم ولم يتسرّب إلى لغتنا، على حين وَجد بعضها طريقه حقّاً إلى ألسنتنا وأقلامنا، وبصورةٍ أوسع وأسرع بكثيرٍ ممّا حدث مع التراكيب، مع استمرار احتفاظه، مع ذلك، بالهُويّة القرآنيّة التي تميّزه عن لغتنا.

ومرّةً أخرى، لا بدّ من طرح الأسئلة الأربعة نفسها أمام كلّ تعبيرٍ، لتَبيُّن قرآنيّته، ولمعرفة مدى تسرّبه إلى لغتنا، أو انحصاره حتّى الآن في لغة القرآن الكريم، مع تأكيدنا على أنّها جميعاً، أوّلاً وأخيراً، تركيباتٌ قرآنيّةٌ لم يعرفها العرب قبل الإسلام:

1 - ﴿**تصريف الرياح**﴾ (أي إثارتها وتوجيهها)

2 - ﴿**تقطّعت بهمُ الأسباب**﴾ (أي تفرّقوا)

3 - ﴿**في شِقاقٍ بعيد**﴾ (أي على عداوةٍ شديدة)

4 - ﴿**الرَفَثُ إلى نسائكم**﴾ (أي الاتصال بهنّ)

5 - ﴿**أخذَتْه العزّةُ بالإثم**﴾ (أي استكبر ورفض التسليم بالحقّ)

6 - ﴿**خاويةٌ على عروشها**﴾ (أي متهدّمة، أو مقفرة)

7 - ﴿**على شَفا حُفْرة**﴾ (أي وشيك الحدوث أو السقوط)

8 - ﴿**مِن عَزْمِ الأمور**﴾ (أي ممّا يتطلّب العزيمة والقوّة)

9 - ﴿**وأُحضِرتِ الأنفسُ الشُحَّ**﴾ (أي جُبِلَ الإنسانُ على البُخل)

10 - ﴿**سَفِهَ نفسَه**﴾ (أي ضيّع عقله)

11 - ﴿**هُدنا إليك**﴾ (أي تُبْنا أو مِلْنا أو عُدْنا إلى هَدْيك)

12 - ﴿**أرأيتَكُم**﴾ (أي ما رأيكم لو حدث)

13 - ﴿**أكادُ أُخفيها**﴾ (أي قريبةٌ جدّاً)

14 - ﴿**حتّى تكون حَرضاً**﴾ (أي حتّى تمرض أو تَهلك)

15 - ﴿**فاصدعْ بما تُؤمَر**﴾ (أي نفّذْ ما أُمِرتَ به)

16 - ﴿**حمأٍ مسنون**﴾ (أي وحْلٍ آسِن)

17 - ﴿**قَصْدُ السبيل**﴾ (أي الهداية إلى الطريق الصحيح)

18 - ﴿**إلى أجلٍ مسمّىً**﴾ (أي في موعدٍ محدّد)

19 - ﴿**مِن بين يديه**﴾ (أي في الماضي، أو في المستقبل)

20 - ﴿**مِن خَلْفِه**﴾ (أي في المستقبل، أو في الماضي)

21 - ﴿**خَلَتْ مِن قبلِكم**﴾ (أي عاشت في العصور القديمة)

22 - ﴿**مَجْمَعَ البحرَين**﴾ (أي مكان التقائهما)

23 - ﴿**أرذَل العمُر**﴾ (أي الشيخوخة)

24 - ﴿**فأَجمِعوا أمْرَكُم**﴾ (أي اتّفِقوا على رأي)

25 - ﴿**فادّارَأْتُم فيها**﴾ (أي اتّهم كلٌّ منكم الآخَر).

إنّني واثقٌ من أنّ انطباعكم عن قائمة التعبيرات هذه سيكون مختلفاً عن انطباعكم الذي خرجتم به عن قائمة التراكيب. لقد كانت التعبيرات دائماً أكثر قدرةً وقابليّةً على التسرّب إلى لغتنا البشريّة من التراكيب القرآنيّة، والسبب في ذلك أنّ التراكيب أقرب، بطبيعتها النحويّة، إلى السبيكة، فهي تقوم مثلها، ولو جزئيّاً، على علاقاتٍ بنائيّةٍ تركيبيّةٍ متّسعة الخيارات وغنيّة الاحتمالات بين الأدوات النحويّة والكلمات، وهو ما يجعل أمر تقليدها أقلّ احتمالاً وأبعد منالاً، على حين يتراجع دور هذه العلاقات البنائيّة بين أجزاء التعبير ليتقدّم عليها دور الكلمة، اسماً أو فعلاً، ودور العلاقات المعنويّة والبيانيّة الفائقة الخصوبة بين الحشد الهائل لألفاظ هذين العنصرين.

وهكذا نرى أنّ معظم التراكيب أو التعبيرات القرآنيّة أبلغ قرآنيّةً وأشدّ تفرّداً وأكثر جهراً بسماويّته من أن يتسرّب إلى لغتنا، الرسميّة المكتوبة منها أو اليوميّة العاديّة، فظلّ بهذا بعيداً عن منافذ الدخول إليها أو احتمالات استعمالنا له، شأنه شأن السبائك القرآنيّة.

ومع هذا فإنّ كثيراً من التعبيرات القرآنيّة، وكذلك بعض التراكيب أيضاً، دخل معجم لغتنا المتداولة فأصبح جزءاً منها، بحيث نكاد ننسى أصوله القرآنيّة، وأركّز على كلمة (نكاد)، وبحيث يصعب أن نستغني عنه في كتاباتنا وأحاديثنا، كالتعبيرات (5 و6 و7 و18 و23) من النماذج التي أوردناها.

وما يزال هناك الكثير من التعبيرات والتراكيب القرآنيّة مرشَّحاً للدخول إلى لغتنا في المستقبل، الرسميّة منها والمحكيّة، لو عرفنا كيف نفتح أبواب هذه اللغة على نحو أوسع أمام التأثير القرآنيّ.

## التراكيب القرآنيّة في (المدّثّر):

ولأنّ سورة (المدّثّر) هي إحدى أوائل السور التي أُنزلت على الرسول ﷺ، إن لم تكن أوّلَها على الإطلاق، فمن المهمّ أن نقف عندها في دراستنا للظواهر اللغويّة الجديدة المختلفة في القرآن، كما سبق أن وعدنا، حتّى نضع أيدينا من خلالها على مساحة هذه الظواهر كما ظهرت في الدفقات الأولى من الوحي وهي تتنزّل ملء سمع وبصر العربيّ الأوّل في مكّة.

ورغم محدوديّة حضور التركيب مقارنة بحضور التعبير في اللغة العربيّة، أو في أيّة لغةٍ أخرى كما سبق أن أوضحنا، فبإمكاننا العثور في سورة (المدّثّر) على التراكيب الجديدة الاثني عشر التالية:

1 - فذلكَ يومَئذٍ
2 - كلّا إنّهُ
3 - فقُتِل كيفَ
4 - ثمّ قُتِلَ كيف
5 - إنْ هذا إلّا
6 - وما أدراكَ ما
7 - كذلكَ يُضِلُّ
8 - كلّا والقمر
9 - لم نَكُ مِن
10 - فما لَهمْ عن
11 - كلّا بل لا
12 - إلّا أنْ يشاء

ولو اقترحنا البدائل البشريّة لهذه التراكيب الاثني عشر فستكون شيئاً من هذا القبيل:

1 - فإنّ ذلك اليوم سيكون
2 - ليس الأمر كذلك، بل هو
3 - فقاتلَه الله جزاء فَعله
4 - وقاتلَه الله أكثر وأكثر
5 - وما يزيد هذا عن أنّه مجرّد
6 - (من التعبيرات القرآنيّة السائرة اليوم)
7 - هكذا تتبيّن كيف يُضِلّ
8 - دعْك من كلّ ذلك فأنا أُقسِم بالقمر
9 - لم نكُنْ في الحياة الدنيا بينَ من
10 - فما بالُهم منصرفين عن
11 - بل هذا غير ممكنٍ أو صحيح، وإنّما الأمر أنّهم لا
12 - إلّا في حالةٍ واحدة: أن يشاء الله

ولأنّنا حريصون على ألّا تختلط عندنا التعبيرات بالسبائك، فالحدود بينهما هشّةٌ ورقيقةٌ كما ألمحنا، مثلها مثل الحدود بين التراكيب والتعبيرات، ومع اضطرارنا أحياناً إلى أن نجعل بين التعبيرات ما يقوم على أربعة ألفاظٍ قد تتخلّلها أداةٌ أو أداتان، كالتعبير القرآنيّ (يَرْجِعُ بعضُهم إلى بعضٍ القولَ) مثلاً، فسنحصر أنفسنا في هذه الدراسة، ما استطعنا، بالتعبيرات التي تقتصر على لفظين، وقد يكون معهما أداةٌ أو أداتان على الأكثر، بحيث تتميّز التعبيرات التي نختارها هنا عن السبائك، وهي التي يُفترض فيها ألّا تقلّ عادةً عن أربعة ألفاظٍ أو خمسةٍ، وقد تمتدّ لتستغرق سطراً كاملاً، مع اعترافنا دائماً بحتميّة وجود مناطق حدوديّةٍ رخوةٍ بين التعبير والسبيكة يصعب فيها تحديد مواطَنة كلٍّ منهما على نحو قطعيّ.

## التعبيرات القرآنيّة في (المدّثّر):

ربّما كان من الأجدر بنا، ونحن نحصي التعبيرات الجديدة في (المدّثّر)، أن نسأل أنفسنا: وهل هناك أصلاً أيّ تعبيرٍ غير جديدٍ في السورة؟

تتألّف (المدّثّر) من 56 آيةً في أقلّ من صفحتين، ومعظم آياتها (ثلاثون آية على الأقلّ) لا تتجاوز مساحتها كلمتين أو ثلاثاً، ومع ذلك فإنّ بإمكاننا أن نحصي فيها ما لا يقلّ عن 65 تعبيراً قرآنيّاً جديداً.

هل تصوّرتم حجم الكتلة التعبيريّة الجديدة في السورة؟ 65 تعبيراً جديداً في 56 آيةً لا يزيد ألفاظ معظمها على كلمتين أو ثلاث، ممّا يعني أنّ التعبير الواحد غالباً ما يستغرق الآية بكاملها، من ناحية، وأنّ التعبيرات الجديدة، من ناحيةٍ أخرى، لم تترك مكاناً يُذكر، إن تركت أيّ شيءٍ على الإطلاق، للتعبيرات التي عرفها العرب قبل القرآن.

لقد ظلّ استعمال معظم هذه التعبيرات مقتصراً حتّى الآن على القرآن الكريم وحده، فلم يتسرّب أكثرها إلى لغتنا اليوميّة أو الرسميّة، شأنها شأن السبائك القرآنيّة أيضاً، وهذه الحقيقة تعطينا فكرةً مبسّطةً أخرى عن حجم وقوّة الإعصار اللغويّ الذي كان يواجهه المعجم العربيّ الجاهليّ منذ اللحظات الأولى لتنزّل الوحي من السماء.

لن تجدوا أيّاً من هذه التعبيرات في تراثنا الجاهليّ، ولن تجدوا معظمها حتّى في الحديث النبويّ، ولا في التراث العربيّ الذي بين أيدينا الآن، الذي يمتدّ منذ عصر النبوّة حتّى اليوم، بل، وما هو أبعد وأغرب وأكثر إثارةً من ذلك، إنّ اثنين وخمسين من هذه التعبيرات (52 من أصل 65) تقتصر على (المدّثّر) وحدها ولا تتكرّر في أيّةِ سورةٍ أخرى.

إنّ هذه الحقيقة تؤكّد لنا هنا ليس جدّة اللغة القرآنيّة فحسب، بل فكرة تفرّد كلّ سورةٍ بشخصيّتها اللغويّة المستقلّة أيضاً، وهذا أمرٌ سنتوقّف عنده باستمرار عند دراستنا لقصار السور في القسم الثاني من الكتاب. وهذه هي التعبيرات الجديدة الخمسة والستّون في السورة:

1 - ﴿يا أيّها المدّثّر﴾
2 - ﴿قُمْ فأنذِرْ﴾
3 - ﴿وربَّكَ فكبِّرْ﴾
4 - ﴿وثيابَك فطهِّرْ﴾
5 - ﴿والرُجزَ فاهجُرْ﴾
6 - ﴿ولا تَمْنُنْ تَستكثِر﴾
7 - ﴿ولربِّكَ فاصبِرْ﴾
8 - ﴿فإذا نُقِرَ في الناقور﴾
9 - ﴿يومٌ عسير﴾
10 - ﴿على الكافِرين غَيْرُ يسير﴾
11 - ﴿ذَرني ومَن خَلقْتُ وحيدا﴾
12 - ﴿وجَعلتُ له مالاً﴾
13 - ﴿مالاً ممدوداً﴾
14 - ﴿بنين شُهوداً﴾
15 - ﴿مهّدتُ له تمهيداً﴾
16 - ﴿يَطمَعُ أنْ أزيد﴾
17 - ﴿كان لآياتِنا عنيداً﴾
18 - ﴿سأُرهقُه صَعوداً﴾
19 - ﴿فَكَّرَ وقَدَّر﴾
20 - ﴿فقُتِل كيفَ قَدَّر﴾
21 - ﴿عَبَسَ وبَسَر ﴾
22 - ﴿أَدْبَرَ واستَكبر﴾
23 - ﴿سِحْرٌ يُؤثَر﴾
24 - ﴿سأُصْلِيه سَقَر﴾

obeikan.com

25 - ﴿لا تُبْقي ولا تَذَر﴾

26 - ﴿لَوّاحَةٌ للبَشَر﴾

27 - ﴿أصحابَ النار﴾

28 - ﴿وما جَعَلْنا عِدّتَهم﴾

29 - ﴿فِتنةً للّذين كَفَروا﴾

30 - ﴿الذين أوتوا الكتابَ﴾

31 - ﴿يزدادَ الذين آمَنوا إيماناً﴾

32 - ﴿في قلوبِهم مرضٌ﴾

33 - ﴿أرادَ اللهُ بهذا مَثَلاً﴾

34 - ﴿يُضِلُّ اللهُ مَن يَشاء﴾

35 - ﴿ويَهدي مَن يشاء﴾

36 - ﴿جُنودَ ربِّك﴾

37 - ﴿ذكرَى للبشَر﴾

38 - ﴿والقمرِ﴾

39 - ﴿والليلِ إذْ أدْبَر﴾

40 - ﴿والصبحِ إذا أَسفَر﴾

41 - ﴿لَإحدى الكُبَر﴾

42 - ﴿نذيراً للبشَر﴾

43 - ﴿أنْ يتقدّمَ أو يتأخّر ﴾

44 - ﴿بما كَسَبَتْ رَهينة﴾

45 - ﴿أصحابَ اليمين﴾

46 - ﴿في جَنّاتٍ يتساءلون﴾

47 - ﴿يتساءلون عن المجرمين﴾

48 - ﴿ما سَلَككُم في سَقَر﴾

obeikan.com

49 - ﴿لم نَكُ منَ المُصَلِّين﴾
50 - ﴿ولم نكُ نُطعِمُ المِسكين﴾
51 - ﴿نخوضُ مع الخائضين﴾
52 - ﴿يوم الدين﴾
53 - ﴿نُكذِّبُ بيومِ الدِّين﴾
54 - ﴿ أتانا اليقين﴾
55 - ﴿شفاعةُ الشافعين﴾
56 - ﴿عنِ التَذْكرةِ مُعرِضِين﴾
57 - ﴿حُمُرٌ مستنفِرة﴾
58 - ﴿فَرّتْ مِن قَسْوَرَة﴾
59 - ﴿يُؤتَى صُحُفاً منشَّرَة﴾
60 - ﴿لا يخافون الآخرة﴾
61 - ﴿إنّه تَذْكِرة﴾
62 - ﴿فمَن شاءَ ذَكَرَه﴾
63 - ﴿يشاءَ الله﴾
64 - ﴿أهلُ التقوى ﴾
65 - ﴿أهلُ المغفِرة﴾

وفيما عدا التعبيرين: رقم (25 و63) ﴿لا تبقي ولا تذر﴾ و﴿يشاء الله﴾ اللذين أصبحا حقّاً جزءاً من معجم لغتنا الرسميّة، وربّما اليوميّة، فإنّ التعبيرات الأخرى تكاد تكون إلى يومنا هذا مختصّةً بالقرآن الكريم وحده.

وفي الفصل التالي سنتوقّف عند جانبٍ هامٍّ آخر من جوانب التجديد الذي أحدثه القرآن الكريم في اللغة العربيّة لا يقلّ أهمّيةً عن جانب التركيب والتعبير، وهو جانب الألفاظ والأدوات القرآنيّة.